

سوق المطر

حمادة حامد محمود نور الدين

في الليلة التي بدأ فيها المطر في سوق «باب الحارة» القديم، كانت أمّ حسنين آخر البائعين الباقين. أغلق الجميع دكاكينهم هرباً من السيل، وبقيت هي تحت مظلّتها الخشبية المتشقّقة، تعدّ حبّات الكراث والنعناع كأنّ أحداً سيأتي.

لم يكن أحدٌ ليأتي. لكنّها كانت تعرف أنّ المطر في هذا السوق ليس مطراً عادياً. كانت جدّتها تقول: «حين يبكي السماء على السوق، فهو يدفع ثمن ما أخذه من الناس.»

بدأت القطرات الأولى تسقط على الحجر، وحين لمست الأرض لم تتناثر ماءً. تحوّلت إلى قطعٍ نقدية صغيرة من ضوء، تدور على الأرض دورةً ثم تسكن. نظرت أمّ حسنين إلى إحداها فرأت فيها مشهداً صغيراً: طفلٌ يمسك يد أبيه في هذا السوق نفسه منذ ثلاثين سنة، ويشير إلى بالونٍ أحمر.

ضحكت، ومدّت يدها، فأخذت القطعة. دفئت في كفّها كجمرة، ثم ذابت وصارت ذكرى في رأسها لم تكن لها. ذكرى رجلٍ لم تعرفه، يشتري بالوناً لابنه ويبكي قليلاً حين لا يجد معه ثمنه.

عند منتصف الليل امتلأ السوق بالنقود الضوئية، تلمع بين الأزقّة كأنّ سماءً مقلوبة سقطت عليه. وفي كلّ قطعة حياة: عروسٌ تخطو بين الدكاكين بثوبٍ أبيض، جنديٌّ يودّع أمّه عند النافورة، تاجرٌ يغشّ في الميزان ثم يعود في الصباح ليعتذر.

ثم جاء الغريب. رجلٌ في معطفٍ مبلّل، يحمل حقيبةً سوداء، وقف أمام أمّ حسنين وقال: «أنا أشتري الذكريات.»

قالت: «وأنا لا أبيعها.»

قال: «لكنّ السوق كلّه يبيعها منذ سنين، دون أن يشعر. كلّ مرة تساومين فيها على كيلو طماطم، كلّ مرة تضحكين مع جارتك، كلّ ذلك يتساقط على الأرض كالفكّة. وأنا أجمعها.»

ضحكت أمّ حسنين بمرارة وقالت: «وماذا ستفعل بكل هذا؟ ذكرياتٌ ليست لك.»

قال: «لا أفعل بها شيئاً. أحملها إلى البعيد، حيث لا يصل أحد، وأضعها في العتمة حتى تهدأ. الناس يتعبون من حمل أيامهم كلها يا سيدتي. أنا أخفّف عنهم.»

نظرت حولها، فرأت الجارة العجوز أمّ سيّد تطلّ من نافذةٍ فوق الدكاكين، وعيناها معلّقتان بقطعةٍ ضوئية تسقط أمامها على الحجر. كانت أمّ سيّد قد فقدت زوجها في الربيع الماضي، وكانت تقول لكل من يسألها إنها نسيت وجهه تماماً. وفي القطعة التي سقطت كان وجهه واضحاً، يضحك وهو يغسل يديه عند الحنفيّة. لم تجرؤ أمّ سيّد على النزول لتلتقطها، لأنها خافت أن تلمسها فتذوب وتتبدد.

وفي زاوية السوق جلس صبيٌّ يبيع الأقلام، يحدّق في قطعةٍ ضوئية عند قدميه، وفيها أمّه تغنّي له وهو صغير. كان الصبي يهزّ رأسه، ويتمتم: «ليست لي. لا أذكر هذا.» وكان الغريب يقترب منه خطوةً خطوة، بيدٍ ممدودة، بحقيبته المفتوحة.

هنا فقط فهمت أمّ حسنين أن الأمر لا يتعلق بها وحدها. السوق كله يقف على حافة النسيان في ليلةٍ واحدة، والمطر لا يمطر إلا ليعطي الجميع فرصةً أخيرة، وقد كان معظمهم لا يعرفون.

نظرت إلى الأرض فرأت قطعةً لامعة قرب قدميها، فيها وجهها هي، شابّة في العشرين، تحمل سلّةً وتنظر إلى شابٍّ يبتسم لها من بعيد.

اسمه حسنين. زوجها الذي رحل. لقد نسيت أنّ الابتسامة الأولى كانت هنا، عند باب هذا السوق بالذات.

أمسكت القطعة بسرعة وضمّتها إلى صدرها. قال الغريب: «ألا ترين؟ أنتِ تحتفظين بما تخافين فقدانه، وتتركين الباقي يضيع. لكنّ كلّ شيءٍ يضيع في النهاية إلا ما رواه أحد.»

سألته: «ومن أنت؟»

أجاب بهدوءٍ حزين: «أنا النسيان. لست شريراً، فأنا أنظّف الدنيا من الزائد حتى تتّسع لما يأتي. لكنّني أحبّ أن أترك للناس فرصةً أخيرة.»

ثم فتح حقيبته السوداء، فإذا هي فارغة، بلا قاع، كأنها ليلٌ صغير. قال: «سأمضي. إن شئتِ أن تنقذي ما في هذا السوق، فاحكيه. كل ذكرى تُحكى مرة واحدة بصوتٍ عالٍ، تثبت ولا أستطيع أخذها.»

وقفت أمّ حسنين حائرة. كان الليل طويلاً، والسوق واسعاً، وهي امرأة عجوز. لكنّها تذكّرت جدّتها، فشدّت وشاحها ونادت بأعلى

صوتها في الأزقة الخالية: «اسمعوا! كان هنا عرسٌ في الربيع، وكان العريس يرتجف حتى أوقع الخاتم في الماء!»

ارتجفت القطع الضوئية على الأرض، وبدأت واحدةٌ منها ترتفع وتلتصق بجدار الدكان، وتتحوّل إلى نقشٍ مضيء. وحكت أخرى، وثالثة، وبدأت أبواب السوق تُفتح واحداً بعد الآخر: جاء بائع الفول بوجهٍ نائم، وجاءت الحلاقة بمقصّها، وجاء الأولاد الذين يلعبون الكرة بين الأكشاك. كلّ واحدٍ التقط قطعةً ورأى فيها ما نسي، وراح يحكي.

وكانت أمّ سيّد آخر من نزل. وقفت على عتبة بيتها وقد بلّلها المطر، وقالت بصوتٍ مرتجف: «كان اسمه فتحي، وكان يغنّي وهو يغسل يديه، وكان يقول لي كل مساء: لا تتأخري.» ثم صمتت، وفي الصمت انفتح وجهه على الجدار أمامها، ضاحكاً، مبلّلاً، حاضراً كما لم يكن منذ شهور. لم يقل أحدٌ شيئاً. وقفوا جميعاً يحرسون ذلك الوجه كما تُحرس شمعةٌ في ريح.

ظلّوا يحكون حتى الفجر، والمطر يخفّ ويرقّ. وحين طلعت الشمس كانت جدران السوق كلّها مغطاة بنقوشٍ ذهبية: وجوهٌ،

وأسماء، وأغانٍ مكتوبة بخطّ الضوء. أما الغريب فقد اختفى، وبقيت على الأرض حقيبته السوداء، فارغةً كما كانت، وقد كتب أحدهم على جلدها بالطبشور: «شكراً، لقد أبقيتم لي بعض العمل.»

لم يعد سوق «باب الحارة» يغلق دكاكينه عند أول مطر. صار الناس يخرجون إليه، ويقفون تحت الأقمشة المبلّلة، ويحكي بعضهم لبعض. وكلّما بدأت السماء تمطر، جلست أمّ حسنين على كرسيّها الخشبي وقالت: «هيّا، من عنده حكاية؟»

وتقول جاراتها إنّ المطر لم يعد يأخذ من السوق شيئاً، بل صار يغسل عنه الغبار فحسب، ويترك الذكريات في أماكنها مثل جواهر، لمن يحبّ أن يلتقطها بقلبه.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app